الإحالة الذاتية والمعنى في اللغة العادية

بقلم: كارل ر. بوبر (1902-1994)

ثييتيتوس: أصغ إليّ مَليًّا يا سقراط، فإن ما سأطرحه عليك ليس بالأمر اليسير.

سقراط: سأبذل قصارى جهدي يا ثييتيتوس، شريطة أن تُعفيني من تفاصيل إنجازاتك في نظرية الأعداد، وأن تتحدث بلغة يفهمها رجل عادي مثلي.

ثييتيتوس: السؤال التالي الذي سأطرحه عليك هو سؤال غير عادي تمامًا، وإن كان مصاغًا بلغة عادية للغاية.

سقراط: لا حاجة لتحذيري، فأنا كلي آذان صاغية.

ثييتيتوس: ماذا قلتُ أنا بين آخر مقاطعتين لك يا سقراط؟.

سقراط: قلتَ: "السؤال التالي الذي سأطرحه عليك هو سؤال غير عادي تمامًا، وإن كان مصاغًا بلغة عادية للغاية".

ثييتيتوس: وهل فهمتَ ما كنتُ أقوله؟.

سقراط: بالطبع فهمت. لقد كان تحذيرك يشير إلى سؤال كنتَ تنوي طرحه عليّ.

ثييتيتوس: وماذا كان سؤالي هذا الذي أشار إليه تحذيري؟ هل يمكنك تكراره؟.

سقراط: سؤالك؟ دعني أرى... آه، نعم، كان سؤالك: "ماذا قلتُ أنا بين آخر مقاطعتين لك يا سقراط؟".

ثييتيتوس: أرى أنك وفيت بوعدك يا سقراط، فقد انتبهتَ لما كنت أقوله. ولكن هل فهمتَ سؤالي هذا الذي اقتبستَه للتو؟.

سقراط: أعتقد أنني أستطيع إثبات فهمي لسؤالك فورًا؛ ألم أجب عليه إجابة صحيحة حين طرحته أول مرة؟.

ثييتيتوس: هذا صحيح. ولكن هل توافق على أنه كان سؤالًا غير عادي؟.

سقراط: كلا. أقرُّ بأنه لم يُطرح بلياقة أدبية كافية يا ثييتيتوس، ولكنني أخشى أنه ليس خارجًا عن المألوف. كلا، لا أرى فيه شيئًا غير عادي.

ثييتيتوس: أعتذر إن كنتُ فظًّا يا سقراط، وصدقني، لم أرد إلا الإيجاز، وهو ما كان له أهمية في تلك المرحلة من نقاشنا. لكنني أجد من المثير للاهتمام أنك تعتبر سؤالي عاديًا (بصرف النظر عن فظاظته)؛ فبعض الفلاسفة قد يقولون إنه سؤال مستحيل، أو على الأقل سؤال لا يمكن فهمه بشكل صحيح، لأنه يفتقر إلى المعنى.

سقراط: ولماذا يفتقر سؤالك إلى المعنى؟.

ثييتيتوس: لأنه أشار إلى نفسه بشكل غير مباشر.

سقراط: لا أرى ذلك. فبقدر ما أرى، كان سؤالك يشير فقط إلى التحذير الذي وجهتَه لي قبيل طرحك له.

ثييتيتوس: وإلى ماذا أشار تحذيري؟.

سقراط: الآن فهمتُ ما تعنيه. تحذيرك أشار إلى سؤالك، وسؤالك أشار إلى تحذيرك.

ثييتيتوس: ولكنك تقول إنك فهمت كليهما: تحذيري وسؤالي؟.

سقراط: لم أجد أدنى صعوبة في فهم ما قلته.

ثييتيتوس: يبدو أن هذا يثبت أن شيئين يقولهما المرء قد يكونان ذوي معنى تام رغم أنهما يحيلان إلى نفسيهما بشكل غير مباشر؛ أي أن الأول يشير إلى الثاني والثاني يشير إلى الأول.

سقراط: يبدو أن الأمر كذلك فعلاً.

ثييتيتوس: ألا تعتقد أن هذا أمر غير عادي؟.

سقراط: بالنسبة لي لا يبدو غير عادي، بل يبدو بديهيًا. لا أرى لماذا تكلف نفسك عناء لفت انتباهي إلى حقيقة واضحة كهذه.

ثييتيتوس: لأنها أُنكرت، ولو ضمنيًا، من قبل العديد من الفلاسفة.

سقراط: حقًا؟ لقد أدهشتني.

ثييتيتوس: أعني أولئك الفلاسفة الذين يقولون إن مفارقة مثل "مفارقة الكذاب" (النسخة الميغارية من مفارقة إبيمينيدس) لا يمكن أن تنشأ لأن العبارة المصاغة بشكل سليم لا يمكن أن تشير إلى نفسها.

سقراط: أنا أعرف إبيمينيدس والكذاب (الذي يقول: "ما أقوله الآن غير صحيح")، والحل الذي ذكرتَه للتو لا يبدو لي غير معقول.

ثييتيتوس: لكنه لا يحل المفارقة إذا سلمتَ -كما فعلتَ- بأن الإحالة الذاتية غير المباشرة جائزة. فكما أظهر لانغفورد، يمكن صياغة مفارقة الكذاب أو إبيمينيدس باستخدام الإحالة الذاتية غير المباشرة بدلاً من المباشرة.

سقراط: أرجوك، أعطني هذه الصياغة فورًا.

ثييتيتوس: العبارة التالية التي سأقولها هي عبارة صادقة.

سقراط: ألا تقول الصدق دائمًا؟.

ثييتيتوس: العبارة الأخيرة التي قلتُها كانت كاذبة.

سقراط: إذن تريد سحب كلامك؟ حسنًا، يمكنك البدء من جديد.

ثييتيتوس: يبدو أنك لا تدرك ما آلت إليه عبارتاي حين أُخذتا معًا.

سقراط: آه، الآن أدركتُ مضامين ما كنت تقوله. أنت على حق تمامًا، إنه "إبيمينيدس" القديم يطل برأسه من جديد.

ثييتيتوس: لقد استخدمتُ إحالة ذاتية غير مباشرة بدلاً من المباشرة، وهذا هو الفرق الوحيد. وهذا المثال يثبت، في اعتقادي، أن مثل هذه المفارقات

كمفارقة إبيمنيدس لا يمكن حلها بالاعتماد على استحالة العبارات المحيلة لذاتها. فإنه حتى لو كانت الإحالة الذاتية المباشرة مستحيلة أو عديمة المعنى، فإن الإحالة الذاتية غير المباشرة هي بالتأكيد أمر شائع جدًا. يمكنني، على سبيل المثال، إبداء الملاحظة التالية: "إنني أتطلع بثقة إلى تعليق ذكي ومناسب منك يا سقراط".

سقراط: هذا التعبير عن ثقتك يا ثييتيتوس يطربني بشدة.

ثييتيتوس: هذا يثبت أنه من السهل أن يكون تعليقٌ ما تعليقًا على تعليق آخر، وأن يكون هذا التعليق الآخر تعليقًا على الأول. ولكن بمجرد أن نرى أننا لا نستطيع حل المفارقات بهذه الطريقة، سنرى أيضًا أن الإحالة الذاتية المباشرة قد تكون سليمة تمامًا. في الواقع، عُرفت أمثلة كثيرة لعبارات غير مفارقة رغم إحالتها المباشرة لذاتها منذ زمن طويل؛ سواء كانت عبارات ذات طابع تجريبي، أو عبارات يمكن إثبات صدقها أو كذبها بالاستدلال المنطقي.

سقراط: هل يمكنك تقديم مثال على عبارة محيلة لذاتها وصادقة تجريبياً؟.

ثييتيتوس: . . . .

سقراط: لم أستطع سماع ما كنت تقوله يا ثييتيتوس. أرجو أن تكرره بصوت أعلى قليلاً، فسمعي لم يعد كما كان.

ثييتيتوس: قلتُ: "أنا أتحدث الآن بصوت منخفض جدًا بحيث لا يستطيع سقراط العزيز أن يفهم ما أقوله".

سقراط: يعجبني هذا المثال، ولا أستطيع أن أنكر أنك حين كنت تتحدث بصوت منخفض، كنت تتحدث بصدق. كما لا يمكنني إنكار الطابع التجريبي لهذا الصدق، فلو كان سمعي كما كنت أصغر سنًا، لكانت عبارتك كاذبة.

ثييتيتوس: سيكون صدق عبارتي التالية قابلاً للبرهان منطقياً، على سبيل المثال

عن طريق "البرهان بالخُلف"، وهو المنهج الأثير لدى إقليدس عالم الهندسة.

سقراط: أنا لا أعرفه، لعلك تقصد الرجل من ميغارا؟ ولكن أظن أنني أفهم ما تعنيه بـ"البرهان بالخُلف". هل ستذكر نظريتك الآن؟.

ثييتيتوس: ما أقوله الآن هو كلام ذو معنى.

سقراط: هل لي أن أحاول إثبات نظريتك بنفسي؟ سأفترض، لغرض البرهان، صدق نقيض نظريتك، أي صدق العبارة القائلة: "ما أقوله الآن لغو (عديم المعنى)". فإذا كانت هذه العبارة صادقة، فيجب أن تكون بالضرورة ذات معنى. وهكذا فإن افتراض صدقها يؤدي إلى تناقض، مما يثبت صحة نظريتك.

ثييتيتوس: لقد أصبت يا سقراط. لقد أثبتَّ نظريتي، كما تصر على تسميتها. لكن بعض الفلاسفة قد لا يصدقونك. سيقولون إن قولي (أو ربما القول الذي فنّدتَه، وهو "ما أقوله الآن لغو") كان مفارقة، وبما أنه مفارقة، يمكنك "إثبات" ما تشاء عنه، صدقه كما كذبه.

سقراط: لقد أظهرتُ أن افتراض صدق العبارة "ما أقوله الآن لغو" يؤدي إلى محال. دعهم يظهروا ببرهان مماثل أن افتراض كذبها (أو صدق نظريتك) يؤدي إلى محال أيضًا. فإذا نجحوا في ذلك، فقد يدّعون طابعها المفارقي، أو سمّها "لغواً" إن شئت، وعندئذٍ ستكون نظريتك لغواً هي الأخرى.

ثييتيتوس: أوافقك يا سقراط، وعلاوة على ذلك، أنا واثق تمامًا من أنهم لن ينجحوا - على الأقل طالما أنهم يقصدون بكلمة "لغو" تعبيرًا صيغ بطريقة تنتهك قواعد النحو، أو بعبارة أخرى، تعبيرًا سيئ البناء.

سقراط: يسعدني أنك تشعر بهذا القدر من الثقة يا ثييتيتوس، ولكن ألا تشعر أنك واثق بعض الشيء في قضيتنا؟.

ثييتيتوس: إن لم يكن لديك مانع، سأؤجل الإجابة على هذا السؤال لدقيقة أو

دقيقتين. والسبب هو أنني أود أولاً أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أنه حتى لو أظهر شخص ما أن نظريتي، أو ربما نقيضها، كانت مفارقة، فإنه لن يكون قد نجح بذلك في إظهار أنها توصف بأنها "لغو" بأفضل وأنسب معاني الكلمة. فلكي ينجح، سيتعين عليه إظهار أنه إذا افترضنا صدق نظريتي (أو كذب نقيضها "ما أقوله الآن لغو")، فإن ذلك سينتج محالاً. لكنني سأميل إلى القول بأن مثل هذا الاشتقاق لا يمكن أن يحاول القيام به أي شخص لا يفهم معنى نظريتي (أو نقيضها). وسأميل إلى القول بأنه إذا أمكن فهم معنى عبارة ما، فإن العبارة لها معنى؛ ومرة أخرى، إذا كان لها أي مضامين (أي إذا كان يترتب عليها أي شيء)، فيجب أن يكون لها معنى أيضًا. يبدو أن وجهة النظر هذه تتفق مع الاستخدام العادي، ألا تعتقد ذلك؟.

سقراط: بلى، أعتقد ذلك.

ثييتيتوس: بالطبع، لا أريد أن أقول إنه قد لا تكون هناك طرق أخرى لاستخدام كلمة "ذو معنى"؛ فعلى سبيل المثال، اقترح بعض زملائي الرياضيين أننا نسمي العبارة "ذات معنى" فقط إذا وجد منهج يمكن من خلاله إثباتها أو دحضها. ولكن هذا سيؤدي إلى نتيجة مفادها أننا لن نعرف ما إذا كان حدسٌ مثل "حدس غولدباخ" - "كل عدد زوجي هو مجموع عددين أوليين" - ذا معنى على الإطلاق، قبل أن نكتشف ما إذا كان هناك منهج يمكن من خلاله برهنته أو دحضه؛ فقد لا يكون كلاهما، وقد لا يوجد مثل هذا المنهج.

سقراط: أعتقد أن هذه ستكون طريقة غريبة وغير ملائمة لاستخدام كلمة "ذو معنى".

ثييتيتوس: ومع ذلك، اقترح آخرون تسمية العبارة "ذات معنى" فقط إذا عرفنا كيف نجد ما إذا كانت صادقة أم كاذبة؛ وهو اقتراح يؤول إلى المعنى نفسه

تقريبًا.
سقراط: هذا يبدو لي مشابهًا جدًا لاقتراحك السابق.
ثييتيتوس: أما إذا كنا نعني بكلمة "عبارة أو سؤال ذو معنى" شيئًا مثل "تعبير مفهوم لأي شخص يعرف اللغة، لأنه صيغ وفقًا للقواعد النحوية لتشكيل العبارات أو الأسئلة في تلك اللغة"، فعندئذٍ أعتقد أنه يمكننا تقديم إجابة صحيحة لسؤالي التالي، والذي سيكون مرة أخرى سؤالاً محيلاً لذاته.
سقراط: دعني أرى إن كان بإمكاني الإجابة عليه.
ثييتيتوس: هل السؤال الذي أطرحه عليك الآن ذو معنى أم لغو؟.
سقراط: إنه ذو معنى، ويمكن إثبات ذلك. فافترض أن إجابتي كاذبة وأن الإجابة "إنه لغو" صادقة. عندئذٍ يمكن تقديم إجابة صادقة لسؤالك. لكن السؤال الذي يمكن تقديم إجابة له (وفوق ذلك إجابة صادقة) يجب أن يكون ذا معنى. لذا فإن سؤالك كان ذا معنى، Quod erat demonstrandum (أي: وهو المطلوب إثباته).
ثييتيتوس: أتساءل من أين تعلمت كل هذه اللاتينية يا سقراط (*Quod erat demonstrandum*). ومع ذلك، لا أجد أي خلل في برهانك؛ فهو ليس إلا نسخة من برهانك لما تسميه نظريتي.
سقراط: أعتقد أنك تخلصت من الاقتراح القائل بأن العبارات المحيلة لذاتها مستحيلة أو عديمة المعنى. لكن يؤسفني أنني مضطر للاعتراف بهذا، فقد كان ذلك وسيلة مباشرة للتخلص من المفارقات.
ثييتيتوس: هناك طريقة أبسط يا سقراط.
سقراط: ما هي؟.
ثييتيتوس: فقط تجنبها، كما يفعل الجميع تقريبًا، ولا تقلق بشأنها.

سقراط: ولكن هل هذا كافٍ؟ هل هذا آمن؟.

ثييتيتوس: بالنسبة للغة العادية وللأغراض العادية، هذا كافٍ وآمن معًا. على أية حال، لا يمكنك فعل أي شيء آخر في اللغة العادية، حيث يمكن بناء المفارقات فيها، وبما أنها مفهومة، كما رأينا.

سقراط: ولكن ألا يمكننا أن نضع قوانين، مثلاً، بوجوب تجنب أي نوع من الإحالة الذاتية، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، وبالتالي تطهير لغتنا من المفارقات؟.

ثييتيتوس: يمكننا فعل ذلك بالطبع، ولكن ذلك سيجعل اللغة غير طبيعية؛ فالقواعد الاصطناعية تجعل اللغة اصطناعية. ألم يظهر نقاشنا أن الإحالة الذاتية -على الأقل غير المباشرة- هي أمر عادي تمامًا؟.

سقراط: ولكن بالنسبة للرياضيات مثلاً، ألن يكون من المناسب استخدام لغة اصطناعية نوعًا ما؟.

ثييتيتوس: بلى؛ ولتكوين لغة ذات قواعد اصطناعية، إذا تم ذلك بشكل صحيح، فيما قد يسمى "لغة صورية"، سنأخذ تلميحات من حقيقة أن المفارقات (التي نرغب في تجنبها) يمكن أن تحدث في اللغة العادية.

سقراط: وتفترض أنك ستشرّع للغتك الصورية بوجوب استبعاد جميع الإحالات الذاتية بشكل صارم، أليس كذلك؟.

ثييتيتوس: كلا. يمكننا تجنب المفارقات دون اللجوء إلى مثل هذه التدابير القاسية.

سقراط: هل تسميها قاسية؟.

ثييتيتوس: إنها قاسية لأنها ستستبعد بعض الاستخدامات المثيرة للاهتمام للغاية للإحالة الذاتية، وخاصة منهج غودل في بناء العبارات المحيلة لذاتها، وهو منهج

له تطبيقات بالغة الأهمية في مجالي الخاص، نظرية الأعداد. إنها تدابير قاسية لأننا تعلمنا من تارسكي أنه في أي لغة موصوفة بالاتساق -ولنسمها مثلا "L"- لا يمكن أن ترد فيها تعبيرات مثل "صادق في L" و"كاذب في L"، وبدون تعبيرات كهذه لا يمكن صياغة مفارقات مثل إبيمينيدس أو مفارقة غريلينغ للصفات المتباينة. يتبين أن هذا التلميح كافٍ لبناء لغات صورية يتم فيها تجنب المفارقات.

سقراط: من هم كل هؤلاء الرياضيين؟ ثيودوروس لم يذكر أسماءهم قط.

ثييتيتوس: إنهم "برابرة" (أجانب) يا سقراط، لكنهم بارعون جدًا. إن ما يسمى بـ "منهج غودل في الترقيم الحسابي" هو أمر مثير للاهتمام بشكل خاص من وجهة نظر نقاشنا الحالي.

سقراط: إحالة ذاتية أخرى، وعادية جدًا أيضًا. لقد بدأتُ أصبح واعيًا بهذه الأشياء أكثر من اللازم.

ثييتيتوس: يمكن القول إن منهج غودل هو ترجمة بعض العبارات غير الحسابية إلى عبارات حسابية؛ حيث يتم تحويلها إلى شيفرة حسابية، إذا جاز التعبير؛ ومن بين العبارات التي يمكن ترميزها بهذه الطريقة توجد تلك التي وصفتَها مازحًا بأنها نظريتي. ولنكون أكثر دقة، فإن العبارة التي يمكن تحويلها إلى شيفرة غودل الحسابية هي العبارة المحيلة لذاتها: "هذا التعبير صيغة جيدة البناء"؛ وهنا تحل "صيغة جيدة البناء" محل كلمة "ذات معنى". لقد شعرتُ، كما ستتذكر، بأنك واثق أكثر من اللازم من أن نظريتي لا يمكن دحضها. كان سببي، ببساطة، هو أنه عند تحويلها إلى شيفرة غودل، تصبح نظريتي نظرية من نظريات الحساب. وهي قابلة للبرهان، ونقيضها قابل للتفنيد. والآن إذا نجح أي شخص، بحجة صحيحة (ربما مماثلة لبرهانك الخاص)، في دحض نظريتي -على

سبيل المثال، عن طريق اشتقاق تناقض من افتراض أن نقيض نظريتي كاذب- فإن هذه الحجة يمكن استخدامها لإظهار الشيء نفسه بالنسبة للنظرية الحسابية المقابلة؛ وبما أن هذا سيوفر لنا على الفور طريقة لإثبات أن "0 = 1"، فإنني أشعر أن لدي أسبابًا جيدة للاعتقاد بأن نظريتي لا يمكن دحضها.

سقراط: هل يمكنك شرح منهج غودل في الترميز دون الدخول في تفاصيل فنية؟.

ثييتيتوس: لا حاجة للقيام بذلك لأنه قد تم القيام به من قبل... لا أعني قبل الآن، التاريخ الدرامي المفترض لحوارنا الصغير هذا (والذي هو حوالي 400 قبل الميلاد)، بل أعني قبل أن يتم اختلاق حوارنا هذا من قبل مؤلفه، وهو أمر لن يحدث قبل مرور 2350 سنة أخرى.

سقراط: لقد صُدمت يا ثييتيتوس بهذه الإحالات الذاتية الأخيرة منك. إنك تتحدث كما لو كنا ممثلين نردد سطور مسرحية. هذه خدعة أخشى أن يراها بعض كتّاب المسرح ذكية، لكن ضحاياها لن يرونها كذلك؛ على أية حال، أنا لا أراها كذلك. والأسوأ من أي "نكتة" محيلة لذاتها كهذه هو هذا التسلسل الزمني اللامعقول، بل عديم المعنى. بجدية يا ثييتيتوس، يجب أن أضع حدًا لهذا في مكان ما، وسأضعه هنا.

ثييتيتوس: هَوِّن عليك يا سقراط، من يهتم بالتسلسل الزمني؟ الأفكار لا تحصر في إطار زمني.

سقراط: احذر من الميتافيزيقا يا ثييتيتوس!.

مدرسة لندن للاقتصاد